فضل الشكر

أبو عاصم البركاتي المصري

دار الهدي النبوي

فضل الشكر

أبو عاصم البركاتي المصري

الطبعة الثانية

1444هـ / 2022

دار الهدي النبوي – مصر

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله،﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران:102] .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: 1].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: 70 –71] . أما بعد..

فإن خلق الشكر خلق يحبه الله واتصف به سبحانه وتعالى كما في قوله جل شأنه : ﴿ وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: 158].

وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً﴾ [النساء: 147].

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [الشورى: 23] .

وقال تعالى : ﴿ إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [التغابن:17] .

وفي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: " بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ وَجَدَ غُصْنَ شَوْكٍ عَلَى الطَّرِيقِ فَأَخَّرَهُ فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ[1] ".

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: " غُفِرَ لِامْرَأَةٍ مُومِسَةٍ مَرَّتْ بِكَلْبٍ عَلَى رَأْسِ رَكِيٍّ يَلْهَثُ قَالَ كَادَ يَقْتُلُهُ الْعَطَشُ فَنَزَعَتْ خُفَّهَا فَأَوْثَقَتْهُ بِخِمَارِهَا فَنَزَعَتْ لَهُ مِنْ الْمَاءِ فَغُفِرَ لَهَا بِذَلِكَ[2] ".

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أيضاً أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ بَيْنَا رَجُلٌ يَمْشِي فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ فَنَزَلَ بِئْرًا فَشَرِبَ مِنْهَا ثُمَّ خَرَجَ

---

(1) أخرجه البخاري(624، 688، 2340 ، 2674 ، 5401 وانظر 590 ، 626) ومسلم (1914).

(2) أخرجه البخاري (3143) (3280) ومسلم رقم 2245.

فَإِذَا هُوَ بِكَلْبٍ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنْ الْعَطَشِ فَقَالَ لَقَدْ بَلَغَ هَذَا مِثْلُ الَّذِي بَلَغَ بِي فَمَلأَ خُفَّهُ ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ ثُمَّ رَقِيَ فَسَقَى الْكَلْبَ فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَإِنَّ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ أَجْرًا قَالَ فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ[1]".

والشكر هو سر دوام النعم وبقائها بل وجالبها، قال سبحانه : ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾[إبراهيم: 7].

والشكر رضيه الله تعالى لخلقه؛ قال تعالى: ﴿ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الزمر:7]

ونحن في هذه المبحث نتحدث عن هذا العمل العظيم والأدب الجليل ، والله المستعان وبه الثقة وعليه التكلان.

وكتب ذلك الفقير إلى عفو الله

أبو عاصم الشحات شعبان محمود البركاتي المصري

---

(1) أخرجه البخاري (2234) ومسلم رقم 2244.

تعريف الشكر:

الشكر لغة الظهور، ومنه ظهور أثر الغذاء في أبدان الحيوان ظهوراً بيناً. يقال: شكرت الدابة، إذا ظهر عليها السِمَنُ ، أي سمنت وظهر عليها العلف، والشكران ضد النكران والجحود

وقد وردت مادة " شكر " ومشتقاتها في (77) موضعاً في القرآن العظيم ، وذلك لبيان أهمية خلق الشكر .

وفي الاصطلاح:

" قيل : حده الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع .

وقيل : الثناء على المحسن بذكر إحسانه .

وقيل : هو عكوف القلب على محبة المنعم والجوارح على طاعته وجريان اللسان بذكره والثناء عليه .

وقيل : هو مشاهدة المنة وحفظ الحرمة .

وما ألطف ما قال حمدون القصار : شكر النعمة أن ترى نفسك فيها طفيليا .

وقال أبو عثمان : الشكر معرفة العجز عن الشكر[1].

وقيل : الشكر إضافة النعم إلى موليها بنعت الاستكانة له .

وقال الجنيد : الشكر أن لا ترى نفسك أهلاً للنعمة [2].

وعلى هذا فالشكر: الثناء على المنعم بمعروف يوليه، والاعتراف في تقصير الشاكر للمنعم[3].

*****

---

(1) وقد روي أن داود عليه السلام قال: إلهي كيف أشكرك وشكري لك نعمة من عندك، فأوحى الله تعالى إليه: " الآن قد شكرتني " . وفي هذا يقال الشكر على الشكر أتم الشكر.

ولمحمود الوراق:

إذا كـــان شكري نعمة الله نعــــمة ... علي له في مثلها يجــب الشــكر

فكيف بلوغ الشـــــكر إلا بفضله ... وإن طالت الأيام واتصل العمر

إذا مـس بالســـراء عم ســـرورها ... وإن مس بالضراء أعقبها الأجر

فـــما منهــــما إلا لــــه فيه نعــمة ... تضيق بها الأوهام والسر والجهر

(2) مدارج السالكين (2/244) لابن قيم الجوزية.

(3) سر دوام النعم ص 21 للدكتور فيصل بن مشعل بن سعود.

الشاكر والشكور:

يقول ابن القيم[1] رحمه الله: وأما تسميته سبحانه بالشاكر، فهو من قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: 147].

والشاكر: معناه المادح لمن يطيعه، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4].

وتسميته أيضا شكور، من قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [التغابن: 17].

فهو الشكور على الحقيقة، فإنه يعطي العبد ويوفقه لما يشكره عليه، ويشكر للقليل من العمل، ويعطي الكثير من الثواب، ولهذا نهينا أن نستصغر شيئا من أعمال البر، قال ﷺ : "لا تحقرن من المعروف شيئا، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق " [2].

وقال ﷺ: "اتقوا النار ولو بشق تمرة، فإن لم يجد، فبكلمة طيبة"[3].

(1) عدة الصابرين (334 – 336) بتصرف.

(2) أخرجه مسلم (2626)، والترمذي (1833)، وأحمد (21519) عن أبي ذر.

(3) أخرجه البخاري (6023)، ومسلم (1016) (68) وأحمد (18253) من حديث عدي بن حاتم.

ويشكر الحسنة بعشر أمثالها إلى أضعاف مضاعفة، ويلقي له الشكر بين عباده. فلما ترك الصحابة ديارهم، وخرجوا منها في مرضاته، عوضهم عنها أن ملكهم الدنيا وفتحها عليهم، ولما احتمل يوسف الصديق ضيق السجن، شكر له ذلك بأن مكن له في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء، ولما بذل الشهداء أبدانهم له حتى مزقها أعداؤه، شكر لهم ذلك بأن عوضهم منها طيرا خضرا أقر أرواحهم فيها ترد أنها الجنة وتأكل من ثمارها إلى يوم البعث، فيردها عليهم أكمل ما تكون وأجمله وأبهاه.

ومن شكره غفرانه للرجل بتنحيته غصن شوك عن طريق المسلمين.

فالشكور لا يضيع أجر محسن، ولا يعذب غير مسيء.

ومن شكره سبحانه أنه يخرج العبد من النار بأدنى مثقال ذرة من خير.

ومن شكره أن العبد من عباده ينوه بذكره، كما شكر لمؤمن آل فرعون ذلك المقام، وأثنى به عليه.

ولما كان سبحانه هو الشكور على الحقيقة، كان أحب خلقه إليه من اتصف بصفة الشكر، كما أن أبغض خلقه إليه من عطلها واتصف بضدها، وهذا شأن أسمائه الحسنى، ولهذا يبغض الكفور والجاهل ويحب الشكور العالم[1].

حقيقة الشكر:

قال ابن القيم : حقيقته في العبودية وهو ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده : ثناءً واعترافاً وعلى قلبِهِ : شهوداً ومحبةً وعلى جوارحِهِ : انقياداً وطاعةً[2].

قواعد الشكر:

قال ابن القيم: الشكر مبني على خمس قواعد : خضوع الشاكر للمشكور، وحبه له، واعترافه بنعمته، وثناؤه عليه بها، وأن لا يستعملها فيما يكره، فهذه الخمس: هي أساس الشكر وبناؤه عليها

(1) عدة الصابرين (334 – 336) بتصرف.

(2) مدارج السالكين (2/244)

فمتى عدم منها واحدة: اختل من قواعد الشكر قاعدة وكل من تكلم في الشكر وحده فكلامه إليها يرجع وعليها يدور[1].

الشكر والحمد :

الحمد لله هو الثناء على الله تعالى ، وذكره سبحانه بأوصاف الكمال ، ولأنه سبحانه أسبغ نعمه على العباد ظاهرة وباطنة، فهداهم من العمى والضلال إلى الإيمان والهدى ودين الحق .

قال تعالى : ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ [النحل :53].

ولذا فالحمد أعم وأشمل من الشكر ، فالشكر يكون ثناء على المشكور لقاء عطاء وإنعام أسداه المشكور إلى الشاكر .

أما الحمد فيكون حمداً وشكراً من غير سبق جميل ولا إحسان .

قال ابن كثير في تفسيره : إن الحمد هو : الثناء على المحمود بصفاته اللازمة والمتعدية، والشكر لا يكون إلا على المتعدية [2] اهـ .

---

(1) مدارج السالكين (2/244)

(2) تفسير القرآن العظيم (1/22) ط دار مصر للطباعة .

والله تعالى يحب الحمد ويرضى عن الحامدين، وفى الحديث عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنْ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا [1] ".

قال ابن القيم : الشكر أعم من جهة أنواعه وأسبابه وأخص من جهة متعلقاته و الحمد أعم من جهة المتعلقات وأخص من جهة الأسباب ، ومعنى هذا : أن الشكر يكون : بالقلب خضوعاً واستكانةً وباللسان ثناءً واعترافاً وبالجوارح طاعةً وانقياداً ومتعلقه : النعم دون الأوصاف الذاتية فلا يقال : شكرنا الله على حياته وسمعه وبصره وعلمه وهو المحمود عليها كما هو محمود على إحسانه وعدله والشكر يكون على الإحسان والنعم فكل ما يتعلق به الشكر يتعلق به الحمد من غير عكس وكل ما يقع به الحمد يقع

(1) رواه مسلم(2734) والنسائي في السنن الكبرى(6899) والترمذي(1816) وأبو يعلى في مسنده(4332).

به الشكر من غير عكس فإن الشكر يقع بالجوارح والحمد يقع بالقلب واللسان [1].

****

درجات الشكر:

وقد قسمها ابن القيم رحمه الله كالآتي:

الدرجة الأولى: الشكر على المحاب، وهذا شكر تشارك فيه المسلمون واليهود والنصارى والمجوس، ومن سعة رحمة الباري سبحانه أن عده شكرا، ووعد عليه الزيادة، وأوجب فيه المثوبة.

إذا علمت حقيقة (الشكر) وأنه الاستعانة بنعم المنعم على طاعته ومرضاته، علمت اختصاص أهل الإسلام بهذه الدرجة. نعم قد يؤدي غيرهم بعض أركانها وأجزائها، كالاعتراف بالنعمة، ولكن كما قلنا حقيقة الشكر، هو الاستعانة بهذه النعمة على مرضاته، وقد كتبت عائشة رضي الله عنها إلى معاوية رضي الله عنه: "إن أقل ما يجب للمنعم على من أنعم عليه، أن لا يجعل ما أنعم عليه سبيلا إلى معصيته".

---

(1) مدارج السالكين (2/246).

* الدرجة الثانية: الشكر في المكاره، إظهارا للرضى، ومما يميز كظم الغيظ وستر الشكوى.

يعني أن الشكر على المكاره أشد وأصعب من الشكر على المحاب، ولهذا كان فوقه في الدرجة، ولا يكون إلا من أحد رجلين:

إما رجل لا يميز بين الحالات، بل يستوي عنده المكروه والمحبوب، فشكر هذا إظهار منه للرضى بما نزل به، وهذا مقام الرضى، وهو من السابقين.

الرجل الثاني: من يميز بين الأحوال، فهو لا يحب المكروه، ولا يرضى بنزوله به، فإذا نزل به مكروه شكر الله تعالى عليه، فكان شكره كظما للغيظ الذي أصابه، وسترا للشكوى، ورعاية منه للأدب، وسلوكا لمسلك العلم، فإن العلم والأدب يأمرانه بشكر الله على السراء والضراء، لأنه شاكر لله شكر من رضي بقضائه، كحال الذي قبله، وهو من المقربين، لكن الذي قبله أرفع منه.

* الدرجة الثالثة: أن لا يشهد العبد إلا المنعم [1].

(1) مدارج السالكين. الإمام ابن القيم. ج2. (253 – 255).

فضــل الشــكر :

(1) الشكر صفة الأنبياء عليهم السلام.

فالله عز وجل أثنى على إبراهيم عليه السلام لأنه كان شاكرا لنعم الله عليه، ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: 120 – 121].

وأخبر الله عن إبراهيم عليه السلام أنه قال ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ [إبراهيم: 39].

وقال سبحانه في شأن داود وسُليمانَ عليهما السلامُ ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ . وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ . وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ . حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى

وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ [النمل: 15 – 19] .

وقال سبحانه مخبراً عن سُليمَانَ عليه السلامُ : ﴿ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل: 40].

وقال تعالى عن نوح عليه السلامُ : ﴿ ذُرِّيَةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾[الإسراء: 3].

وأمر الله تعالى موسى عليه السلام بالشكر في قوله: ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف: 144].

وأمر سبحانه نبيه محمد ﷺ فقال جل شأنه: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ . بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [الزمر: 65 – 66].

وأمر سبحانه لقمان عليه السلام فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [لقمان: 12].

(2) الله تعالى يجازي على الشكر إحساناً.

قال تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ . وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلاً وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآَخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: 144 – 145].

فالله تعالى أخبر بأنه سيجزي الشاكرين وفيه بيان شرف الشكر والشاكرين ، كما في قوله ﷺ : " قال الله :كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به" متفق عليه.

ومن أجل عظم ثواب الشكر وفضله عمل عدو الله إبليس على صرف الناس عنه، فقال كما ورد في القرآن ، قال تعالى : ﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ . ثُمَّ لَآَتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ

وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ [الأعراف: 16 – 17].

فالشكر من أجل الطاعات ثواباً وأجرا، وهو من أعلى المنازل وبه تنال العلى من الدرجات، ولذلك جُعل للمؤمن بالله الشاكر الصابر الخير كله في سرائه وضرائه وذلك مصداقا لقول رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حيث قال: "عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ[1]".

(3) الشكر سبب لحصول النعم ودوامها.

قيل إن الشكر قيد للموجود وطلب للمفقود ، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: 7].

وقال بعض الحكماء : من أعطى أربعاً لم يمنع من أربع، من أعطى الشكر لا يمنع المزيد، ومن أعطى التوبة لا يمنع القبول، ومن

(1) أخرجه مسلم (2999) والدارمي (2777) وأحمد(18455) عَنْ صُهَيْبٍ رضي الله عنه.

أعطى الاستخارة لم يمنع الخيرة، ومن أعطى المشورة لم يمنع الصواب.

وقال المغيرة بن شعبة رضي الله عنه: أشكر من أنعم عليك ،وأنعم على من شكرك، فإنه لا بقاء للنعم إذا كفرت، ولا زوال لها إذا شكرت.

وكان الحسن يقول: ابن آدم متى تنفك من شكر النعمة وأنت مرتهن بها، كلما شكرت نعمة تجد ذلك بالشكر أعظم منها عليك، فأنت لا تنفك بالشكر من نعمة إلا إلى ما هو أعظم منها.

وروي أن عثمان بن عفان رضي الله عنه دعي إلى أقوام ليأخذهم على ريبة، فافترقوا قبل أن يأخذهم عثمان، فأعتق رقبة شكراً لله تعالى إذ لم يجر على يديه فضيحة مسلم.

وقيل: من جعل الحمد خاتمة النعمة جعله الله فاتحة للمزيد.

واسمع لهذا الحديث الذي يوضح أن النعم تدوم وتزيد بالشكر، فقد أخرج مسلم وأحمد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " بَيْنَا رَجُلٌ بِفَلاَةٍ مِنْ الْأَرْضِ فَسَمِعَ صَوْتًا فِي سَحَابَةٍ اسْقِ حَدِيقَةَ فُلاَنٍ فَتَنَحَّى ذَلِكَ السَّحَابُ فَأَفْرَغَ مَاءَهُ فِي حَرَّةٍ فَإِذَا شَرْجَةٌ مِنْ تِلْكَ

الشِّرَاجِ قَدْ اسْتَوْعَبَتْ ذَلِكَ الْمَاءَ كُلَّهُ فَتَتَبَّعَ الْمَاءَ فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ فِي حَدِيقَتِهِ يُحَوِّلُ الْمَاءَ بِمِسْحَاتِهِ فَقَالَ لَهُ يَا عَبْدَ اللَّهِ مَا اسْمُكَ قَالَ فُلَانٌ لِلِاسْمِ الَّذِي سَمِعَ فِي السَّحَابَةِ فَقَالَ لَهُ يَا عَبْدَ اللَّهِ لِمَ تَسْأَلُنِي عَنْ اسْمِي فَقَالَ إِنِّي سَمِعْتُ صَوْتًا فِي السَّحَابِ الَّذِي هَذَا مَاؤُهُ يَقُولُ اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ لِاسْمِكَ فَمَا تَصْنَعُ فِيهَا قَالَ أَمَّا إِذْ قُلْتَ هَذَا فَإِنِّي أَنْظُرُ إِلَى مَا يَخْرُجُ مِنْهَا فَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثِهِ وَآكُلُ أَنَا وَعِيَالِي ثُلُثًا وَأَرُدُّ فِيهَا ثُلُثَهُ [1]".

(4) الشكر سبب لدفع النقم.

قال تعالى : ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾ [يونس: 98].

وقال رفيع أبو العالية : إني لأرجو أن لا يهلك عبد بين اثنتين نعمةٍ يحمد الله عليها ،وذنبٍ يستغفر منه [2] .

---

(1) أخرجه مسلم (2984)وأحمد(7881) .

(2) ابن أبي الدنيا في "كتاب الشكر" (88).

وقال أبو قلابة: لا تضركم دنيا إذا شكرتموها[1] .

(5) الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر .

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: " الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر[2]".

جاء في "فيض القدير" للمناوي(4/377) : (الطاعم الشاكر) من الشكر وهو تصور النعمة، وإظهارها قيل هو مقلوب الكشر ، وهو الكشف لأن الشاكر يكشف النعم (بمنزلة الصائم الصابر) لأن الطعم فعل والصوم كف عن فعل فالطاعم بطبعه يأتي ربه بالشكر والصائم بكفه عن الطعم يأتي ربه بالصبر قال الطيبي : وقد تقرر في علم المعاني أن التشبيه يستدعي جهة جامعة والشكر نتيجة النعماء كما أن الصبر نتيجة البلاء فكيف شبه الشاكر بالصابر ؟

(1) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الشكر (59).

(2) أخرجه البخاري تعليقاً كِتَاب الْأَطْعِمَةِ بَاب الطَّاعِمُ الشَّاكِرُ مِثْلُ الصَّائِمِ الصَّابِرِ(7/80) وأحمد والترمذي وابن ماجه وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (655).

وجوابه أنه ورد الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر فقد يتوهم أن ثواب شكر الطاعم يقصر عن ثواب صبر الصائم فأزيل توهمه به يعني هما سيان في الثواب ولأن الشاكر لما رأى النعمة من الله وحبس نفسه على محبة المنعم بالقلب وإظهارها باللسان نال درجة الصابر فالتشبيه واقع في حبس النفس بالمحبة والجهة العامة حبس النفس مطلقا.

وقال الغزالي : هذا دليل على فضيلة الصبر إذ ذكر ذلك في معرض المبالغة لرفع درجة الشكر فألحقه بالصبر فكان هذا منتهى درجته ولولا أنه فهم من الشرع علو درجة الصبر لما كان إلحاق الشكر به مبالغة في الشكر.

(الطاعم الشاكر له مثل أجر الصائم الصابر) بل ربما كان في بعض الأفراد أفضل وذلك عند تعدي النفس وحالة الضرورة .

قال الحكيم : فهذا شكر الصادقين عدل شكره على طعامه بصبره في صيامه أما شكر الصديقين أولياء الرحمن فقد فاق على صبر

الصائمين لأن الصبر ثبات العبد في مركزه على الشهوات برد ما يحتاج منها والشاكر من الصديقين يطعم فيفتتح طعامه ببسم الله الذي تملأ تسميته ما بين السماء والأرض ويطفئ حرارة الشهوة ويرى لطف الله في ذلك الطعام ، وبهذا وما قبله احتج ابن القيم لمن فضل الشكر على الصبر لأنه ذكر في معرض تفضيل الصبر ورفع درجته على الشكر فإنه ألحق الشاكر بالصابر وشبهه به ورتبة المشبه به أعلى ، قال ابن الأثير : والطاعم الآكل يقال طعم يطعم طعماً، فهو طاعم إذا أكل أو ذاق. انتهى

وانظر إلى سفيان بن عيينة رحمه الله عندما قال له سائل: أيهما أحب إليك قول مطرف بن عبد الله بن الشخير : لأن أعافى فأشكر خيراً لي من أن أبتلى فأصبر، أم قول أخيه أبي العلاء : اللهم إني رضيت لنفسي ما رضيته لي، فسكت سفيان ساعة ثم قال: قول مطرف أحب إلي، لماذا؟ قال: إني قرأت كتاب الله عز وجل فرأيت وصف سليمان مع ما كان فيه من النعمة:﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾

[سورة ص: 30] ورأيت وصف أيوب مع ما كان فيه من البلاء: ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص:44] فقام الشكر مقام الصبر وبقيت العافية، فلأن أعافى فأشكر خير من أن أبتلى فأصبر، إذا كانت الدرجة عند الله واحدة.

(6) وقد أمر الله سبحانه بشكره، وبين أن ذلك من العبادة المأمور بها وأن من قصر في شكره فقد قصر في عبادته، فقال: ﴿ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: 172].

تحقيق شكر الله تعالى

الشكر بالقلب وباللسان وبالجوارح.

أولا : الشكر بالقلب.

ويكون ذلك بالإيمان والتوحيد والخلوص من الشرك كله ، والإقرار والعرفان بالنعمة والثناء على الله بها، والانقياد بالطاعة والخضوع، وجاء في الحديث عَنْ ثَوْبَانَ رضي الله عنه قَالَ لَمَّا نَزَلَ فِي الْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ مَا نَزَلَ قَالُوا فَأَيَّ الْمَالِ نَتَّخِذُ قَالَ عُمَرُ فَأَنَا أَعْلَمُ

لَكُمْ ذَلِكَ فَأَوْضَعَ عَلَى بَعِيرِهِ فَأَدْرَكَ النَّبِيَّ ﷺ وَأَنَا فِي أَثَرِهِ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيَّ الْمَالِ نَتَّخِذُ فَقَالَ: " لِيَتَّخِذْ أَحَدُكُمْ قَلْبًا شَاكِرًا وَلِسَانًا ذَاكِرًا وَزَوْجَةً مُؤْمِنَةً تُعِينُ أَحَدَكُمْ عَلَى أَمْرِ الْآخِرَةِ[1] ".

والإقرار بالنعمة من شكر القلب ، جاء في دعاء سيد الاستغفار الذي رواه شَدَّادُ بْنُ أَوْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ سَيِّدُ الاِسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ :" اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ قَالَ وَمَنْ قَالَهَا مِنْ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَمَنْ قَالَهَا مِنْ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ [2] " .

---

(1) أخرجه أحمد(21931) وابن ماجه (1856) والترمذي(3094).

(2) أخرجه البخاري (5947) والنسائي في "الكبرى"(10417).

ومن الاعتراف بنعمة الله ما جاء في الصحيح: "لن ينجي أحدا منكم عمله"، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: "ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل، فإن أعمال العبد لا توافي نعمة من نعم الله عليه"[1].

وقد أخبر النبي ﷺ أن النساء أكثر أهل النار بسبب كفرها بنعمة الزوج، فقال: "ولو أحسنت إلى إحداهن الدهر، ثم رأت منك شيئا، قالت: ما رأيت منك خيرا قط"[2]، فإذا كان هذا بترك شكر نعمة الزوج وهي في الحقيقة من الله، فكيف من ترك شكر نعمة الله؟!!!!

وروى مسلم برقم(73) عن ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ مُطِرَ النَّاسُ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: " أَصْبَحَ مِنْ النَّاسِ شَاكِرٌ وَمِنْهُمْ كَافِرٌ قَالُوا هَذِهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَقَالَ بَعْضُهُمْ لَقَدْ صَدَقَ نَوْءُ

---

(1) أخرجه البخاري (6463)، ومسلم (2816) (73)، وأحمد (10330) من حديث أبي هريرة.

(2) أخرجه مسلم (2737) (94)، وأحمد 1/234، والترمذي (2602)، والطبراني في الكبير (12767) من حديث ابن عباس.

كَذَا وَكَذَا قَالَ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان:3].

وقال تعالى : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: 152].

فجعل الله الشكر في مقابلة الكفر .

ثانياً الشكر باللسان.

وذلك بدوام الحمد وتوجيه الشكر لله قولاً ، والتحدث بهذه النعم ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: 11].

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: 3].

وفي الحديث عن النعمان بن بشير مرفوعا : " التحدث بنعمة الله شكر وتركها كفر ومن لا يشكر القليل لا يشكر الكثير ومن لا يشكر الناس لا يشكر الله، والجماعة بركة والفرقة عذاب [1]".

---

(1) حسنه الألباني في "صحيح الجامع" رقم : 3014.

وأخرج الترمذي(3551) وابن ماجه(3830) وأحمد(1998) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه عن ابن عباس قال كان النبي ﷺ يدعو يقول : " رب أعني ولا تعن علي وانصرني ولا تنصر علي وامكر لي ولا تمكر علي واهدني ويسر الهدى لي وانصرني على من بغى علي رب اجعلني لك شكاراً لك ذكاراً لك رهاباً لك مطواعاً لك مخبتا إليك أواهاً منيباً رب تقبل توبتي واغسل حوبتي وأجب دعوتي وثبت حجتي وسدد لساني واهد قلبي واسلل سخيمة صدري " .

وأخرج أبو داود والترمذي عَنْ جَابِرٍ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " مَنْ أُعْطِيَ عَطَاءً فَوَجَدَ فَلْيَجْزِ بِهِ وَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَلْيُثْنِ فَإِنَّ مَنْ أَثْنَى فَقَدْ شَكَرَ وَمَنْ كَتَمَ فَقَدْ كَفَرَ وَمَنْ تَحَلَّى بِمَا لَمْ يُعْطَهُ كَانَ كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُور[1] ".

---

(1) أخرجه أبو داود(4813) والترمذي(2034).

وروى الطبراني وحسنه الألباني عن طلحة ابن عبيد الله رضي الله عنه قال :قال رسول الله ﷺ : " من أولي معروفا فليذكره فمن ذكره فقد شكره ومن كتمه فقد كفره [1]".

وروى أحمد وغيره عنْ أَنَسٍ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ : قَالَ الْمُهَاجِرُونَ : يَا رَسُولَ اللهِ ، مَا رَأَيْنَا مِثْلَ قَوْمٍ قَدِمْنَا عَلَيْهِمْ أَحسنَّ مُوَاسَاةً فِي قَلِيلٍ ، وَلاَ أَحْسَنَ بَدَلاً مِنْ كَثِيرٍ ، لَقَدْ كَفَوْنَا الْمُؤْنَةَ وَشَارَكُونَا فِي الْمَهْنَإِ ، حَتَّى لَقَدْ خَشِينَا أَنْ يَذْهَبُوا بِالأَجْرِ كُلِّهِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " لاَ مَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِمْ وَدَعَوْتُمْ لَهُمْ[2]".

قال الخرائطي[3] أنشدني علي بن الحسين قال : أنشدني ابن أبي الدنيا : لو كنت أعرف فوق الشكر منزلة

أعلى من الشكر عند الله في الثمن

إذا منحتكها مني مهذبة

حذوا على حذو ما أوليت من حسن

---

(1) صحيح الترغيب والترهيب(974) .

(2) أخرجه أحمد(13075) وابن أبي شيبة في المصنف (27041).

(3) شكر الله على نعمه للخرائطي (86).

وروى الترمذي وابن ماجه وأبو داود وحسنه الألباني في الإرواء(1989) من حديث معاذ بن أنس الجهني أن رَسُول اللَّهِ ﷺ قال : " مَنْ أَكَلَ طَعَامًا فَقَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنِي هَذَا وَرَزَقَنِيهِ مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِنِّي وَلَا قُوَّةٍ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ " .

وقال رسول الله ﷺ : " أفضل الذكر لا إله إلا الله وأفضل الشكر الحمد لله [1]".

ثالثاً الشكر بالجوارح .

وذلك باستخدام الجوارح واستعمالها في طاعة الله ، فالشكر بالعمل أبلغ من الشكر بالقول وإن كان شكر اللسان مطلوب لا شك قال تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: 13].

روى ابن أبي الدنيا بسنده عن مسعر قال: لما قيل لهم ﴿اعملوا آل داود شكرا﴾ قال لم تأت على القوم إلا وفيهم مصل[2].

---

(1) حسنه الألباني في الصحيحة (1497).

(2) كتاب الشكر (74).

وروى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم عَنْ الْمُغِيرَةَ بْنَ شُعْبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَلَّى حَتَّى انْتَفَخَتْ قَدَمَاهُ فَقِيلَ لَهُ أَتَكَلَّفُ هَذَا وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ فَقَالَ: " أَفَلاَ أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا[1] " .

وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ فَرَأَى الْيَهُودَ تَصُومُ يَوْمَ عَاشُورَاءَ فَقَالَ مَا هَذَا قَالُوا هَذَا يَوْمٌ صَالِحٌ هَذَا يَوْمٌ نَجَّى اللَّهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ عَدُوِّهِمْ فَصَامَهُ مُوسَى، قَالَ: " فَأَنَا أَحَقُّ بِمُوسَى مِنْكُمْ فَصَامَهُ وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ[2] ".

كما أنه من شكر الله تعالى ألا يستعمل جوارحه في معصية الله ، فلا يعصى الله بنعمه .

---

(1) وأخرجه ابن ماجه والترمذي في الشمائل (257)عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْه، ورواه البخاري عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْها.

(2) أخرجه البخاري (1900،3216 ، 3727 ، 4403 ، 4460) ومسلم رقم 1130.

ودعي عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى قوم على ريبة، فانطلق ليأخذهم، فتفرقوا قبل أن يبلغهم، فأعتق رقبة شكرا لله أن لا يكون جرى على يديه خزي مسلم[1].

الترهيب والتحذير من جحود النعم وعدم شكرانها.

قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: 152].

وقال تعالى : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾ [سورة النحل : 78].

وقال جل شأنه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ . وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ . وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: 12 – 14].

(1) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر 39.

وعن عقبة بن عامر عن النبي ﷺ قال : " إذا رأيت الله عز وجل يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج " ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون﴾[1] .

ولقد ضرب الله تعالى في القرآن عدة قصص بين فيها عاقبة كفر النعم والبطر عليها عياذاً بالله تعالى ، ومن هذا القصص ما يلي:

أولاً : قصة أهل سبأ:

إن المتأمل والباحث المدقق في أسباب زوال النعم وحلول النقم ، يعلم علما يقينيا أن أعظم أسباب ذلك الكفر بالله وكثرة الذنوب والمعاصي ومعاداة الرسل ودعوتهم ومعاداة أتباع الرسل والدعاة إلى الله ، قال سبحانه : ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا . فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ [الطلاق: 8 – 9].

(1) أخرجه أحمد و الطبراني و البيهقي في " الشعب، وصححه الألباني في صحيح الجامع(561)

وقال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آَمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ . وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [النحل: 112 – 113].

ولنا في قصة سبأ عبرة قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آَيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ . فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ .ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ . وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آَمِنِينَ . فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ: 15 – 19].

وسبأ قوم من الأقوام كانوا يسكنون اليمن وهم أبناء رجل يقال له سبأ ، أخرج الترمذي برقم(3222) عن فَرْوَةَ بن مُسَيْكٍ الْمُرَادِيِّ أنه لما أُنْزِلَ في سبأ ما أُنْزِلَ فقال رَجُلٌ يا رَسُولَ اللَّهِ وما سَبَأٌ أَرْضٌ أو

امْرَأَةٌ ، قال: " ليس بِأَرْضٍ ولا امْرَأَةٍ وَلَكِنَّهُ رَجُلٌ وَلَدَ عَشْرَةً من الْعَرَبِ فَتَيَامَنَ منهم سِتَّةٌ وَتَشَاءَمَ منهم أَرْبَعَةٌ فَأَمَّا الَّذِينَ تَشَاءَمُوا فَلَخْمٌ وَجُذَامُ وَغَسَّانُ وَعَامِلَةُ وَأَمَّا الَّذِينَ تَيَامَنُوا فَالْأُزْدُ وَالْأَشْعَرِيُّونَ وَحِمْيَرٌ وَمَذْحِجٌ وَأَنْمَارٌ وكندة فقال رَجُلٌ يا رَسُولَ اللَّهِ وما أَنْمَارٌ قال الَّذِينَ منهم خَثْعَمُ وَبَجِيلَةُ[1] ".

وهؤلاء الستة بطون الذين سكنوا تلك الديار ، أنعم الله عليهم وأسبغ عليهم عطاياه في سعة الديار ورغد العيش قال تعالى :﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ﴾ أي علامة دالة على قدرة الله.

﴿جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ فكانت ديارهم متوسطة بين جنتين جنة عن اليمين وأخرى عن الشمال، هاتان الجنتان فيهما من الخير الكثير ، ظلال دائم وثمار وفواكه لا تنقطع ، حتى قيل أن المرأة كانت تمشي فيهما وعلى رأسها مكتل فيمتليء من أنواع الفواكه من غير أن تمسها بيدها ، فالثمار تتساقط من فرط نضجها وطيبها.

﴿ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا﴾ يعني على ما رزقكم من النعم .

---

(1) وأخرجه أحمد والحاكم وصححه.

﴿ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ أي خصبة تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، فكانت الأرض خصبة غير سبخة ، وهواؤها طيب ومناخها معتدل ، لا هو بالحر الشديد ولا بالبرد القارس ، وإنما مناخ طيب .

وذكر جماعة منهم عبد الرحمن بن زيد أن الآية التي كانت لأهل سبأ في مساكنهم أنهم لم يروا فيها بعوضة قط ، ولا ذباباً ولا برغوثاً ولا عقرباً ولا قملة ولا حية ولا غير ذلك من الهوام، وإذا جاء الركب في ثيابهم القمل والدواب فإذا أقبلوا على بيوتهم ماتت الدواب [1].

﴿ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ فجمع الله لهم بين نعم الدنيا من مآكل ومشارب وطيب هواء وسلامة من الأمراض وبين مغفرته وستره عليهم .

فكان الواجب عليهم أداء الشكر والحمد لله وذلك بالعبادة والطاعة والخضوع .

فمن كان في نعمة يرعها ***** فإن المعاصي تزيل النعم

---

(1) راجع تفسير القرطبي (7/568).

والنبي ﷺ يقول: " إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنْ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا [1]" .

والله تعالى يقول: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [البقرة: 172].

ولكنهم أعرضوا وكفروا، قال تعالى :﴿فَأَعْرَضُوا﴾ فأعرضوا أي فكفروا بعد الإيمان ، وجحدوا بعد الشكران وعدلوا عن عبادة الله إلى عبادة الشمس ، كما قال الهدهد لسليمان عليه السلام: ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ . إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ . وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ . أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ . اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ [النمل: 22 – 26].

---

(1) رواه مسلم(2734) والنسائي في السنن الكبرى(6899) والترمذي(1816) وأبو يعلى في مسنده(4332).

وروى محمد ابن إسحاق عن وهب بن منبه : أن الله تعالى بعث إليهم ثلاثة عشر نبياً ، فكذبوهم [1] .

قال تعالى:﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: 17].

﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ أي عاقبهم الله بأن أرسل عليهم الطوفان ، وانهار سد مأرب الذي كانوا بنوه ليحتفظ بماء الأمطار ، فكانت الجبال تحفظ الماء من جهات ثلاثة والسد يحفظه من الجهة الرابعة التي هي جهتهم ، فكانوا يشربون ويسقون بساتينهم ودوابهم ، ودام الظلال والنعيم من الله ، فلما كفروا أرسل الله عليهم السيل وانهار السد فغرقوا وتهدمت بيوتهم ، وذهب الماء فلا يقدرون منه على شيء ، وتشردوا شذر مذر، وصدق الله إذ يقول ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: 40].

---

(1) انظر: تفسير القرطبي (7/569) وابن كثير (3/549)

﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: 30].

وهكذا تغيرت النعم إلى نقم وتحولت عنهم العافية ، ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال: 53].

قال تعالى: ﴿وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ .ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾

أي لما أعرضوا وكفروا وجحدوا شكر هذه النعم المتواترة عاقبهم الله بأن ذهبت الأشجار ذات الثمر الدائم فلا يبقى إلا أشجار ذات أكل خمط وهي كل شجر ذي شوك فيه مرارة ، وقبل كل نبت فيه مرارة لا يمكن أكله ، وقيل ضرب من شجر الأراك له حمل يؤكل.

﴿وأثل﴾ قيل هو الخشب كما نقل القرطبي (571/7) عن الحسن رحمه الله.

﴿وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ وهذا أفضل ما بدلوا به ،قال الأزهري: السدر من الشجر سدران : بري لا ينتفع به، ولا يصلح ورقه للغسول ، وله ثمر

عفص لا يؤكل ، وهو الذي يسمى الضال ، والثاني: سدر ينبت على الماء وثمره النبق [1]اهـ

ثم قال سبحانه: ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آَمِنِينَ . فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾

وفي هذا يذكر الله تعالى ما كانوا فيه من الغبطة والسرور ورغد العيش والبلاد المرضية والأماكن الآمنة ، والقرى المتواصلة المتقاربة ، مع كثرة أشجارها وزروعها حتى إن المسافر لا يحتاج إلى حمل زاد ولا ماء ، لأنه حيث نزل فثم الماء والثمر ويقيل في قرية ويبيت في قرية أخرى بعدها .

---

(1) تفسير القرطبي (7/571).

قال المفسرون : يعني أنهم كانوا يسيرون من اليمن إلى الشام في قرى متواصلة ، قيل أن بين القرية والتي تليها نصف يوم بحيث يقيل المسافر في واحدة ويبيت في أخرى ، وع ذلك هي آمنة فلا يخشون على متاعهم وأنفسهم سواء بالليل أو النهار.

ثم لما أعرضوا وكفروا بطروا بالنعمة واستكبروا ﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ فأحبوا التعب والعنت على الراحة ، وأحبوا المفاوز والصحراء على الطريق الظليل الآمن.

ومثالهم في هذا بنو إسرائيل لما قالوا لموسى عليه السلام ﴿ لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ ﴾ وكان الله قد أنعم عليهم بالمن والسلوى أي باللحم والعسل ، فقالوا كما أخبر الله تعالى﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: 61].

وكما قال النضر بن الحارث كما أخبر الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال: 32]. فقتل يوم بدر صبراً .

وهكذا كفرت سبأ بأنعم الله فقال تعالى ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ أي فرق الله شملهم وشتتهم وجعلهم أحاديث يتحدث الناس بأخبارهم وبما حدث لهم ،وهذا جزاء كفرهم وعنادهم واستكبارهم.

وَفي ذَاكَ للمُؤتَسي أسْوَةٌ ... ومَأربُ عَفّى عَلَيها العَرِمْ

رُخَـــام بَنَتْهُ لَهُـــمْ حِمْيرُ ... إذا جـــــاءَ مَـــوَارهُ لم يَـرِمْ

فَأرْوَى الزُّرُوعَ وَأعنَابَها ... عَلَى سَـعَة مَاؤهُمْ إذْ قُسِم

فَصَارُوا أيَادي مَا يَقْدرُونَ ...منْه عَلَى شُرب طِفْل فُطِم

فالحذر كل الحذر من الذنوب صغيرها وكبيرها فإنها تذهب بالنعم، فالنعم تدوم بشكرها وبالعرفان لله بجميله قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال: 33].

وقال تعالى: ﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾[النساء: 147].

وقال نوح عليه السلام لقومه: ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا .وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴾ سورة نوح.

وقال هود عليه السلام لقومه كما أخبر الله : ﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴾ [هود: 52].

ثانياً قصة الثَلَاثَة فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ .

أخرج البخاري ومسلم في الصحيحين عن أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: " إِنَّ ثَلَاثَةً فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ أَبْرَصَ وَأَقْرَعَ وَأَعْمَى فَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكًا فَأَتَى الْأَبْرَصَ فَقَالَ أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ قَالَ لَوْنٌ حَسَنٌ وَجِلْدٌ حَسَنٌ وَيَذْهَبُ عَنِّي الَّذِي قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ قَالَ فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ قَذَرُهُ وَأُعْطِيَ لَوْنًا حَسَنًا وَجِلْدًا حَسَنًا قَالَ فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ قَالَ الْإِبِلُ أَوْ قَالَ الْبَقَرُ

شَكَّ إِسْحَقُ إِلَّا أَنَّ الْأَبْرَصَ أَوْ الْأَقْرَعَ قَالَ أَحَدُهُمَا الْإِبِلُ وَقَالَ الْآخَرُ الْبَقَرُ قَالَ فَأُعْطِيَ نَاقَةً عُشَرَاءَ فَقَالَ بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا قَالَ فَأَتَى الْأَقْرَعَ فَقَالَ أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ قَالَ شَعَرٌ حَسَنٌ وَيَذْهَبُ عَنِّي هَذَا الَّذِي قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ قَالَ فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ وَأُعْطِيَ شَعَرًا حَسَنًا قَالَ فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ قَالَ الْبَقَرُ فَأُعْطِيَ بَقَرَةً حَامِلاً فَقَالَ بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا قَالَ فَأَتَى الْأَعْمَى فَقَالَ أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ قَالَ أَنْ يَرُدَّ اللَّهُ إِلَيَّ بَصَرِي فَأُبْصِرَ بِهِ النَّاسَ قَالَ فَمَسَحَهُ فَرَدَّ اللَّهُ إِلَيْهِ بَصَرَهُ قَالَ فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ قَالَ الْغَنَمُ فَأُعْطِيَ شَاةً وَالِدًا فَأُنْتِجَ هَذَانِ وَوَلَّدَ هَذَا قَالَ فَكَانَ لِهَذَا وَادٍ مِنْ الْإِبِلِ وَلِهَذَا وَادٍ مِنْ الْبَقَرِ وَلِهَذَا وَادٍ مِنْ الْغَنَمِ قَالَ ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الْأَبْرَصَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ فَقَالَ رَجُلٌ مِسْكِينٌ قَدْ انْقَطَعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي فَلاَ بَلاَغَ لِي الْيَوْمَ إِلَّا بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الْحَسَنَ وَالْجِلْدَ الْحَسَنَ وَالْمَالَ بَعِيرًا أَتَبَلَّغُ عَلَيْهِ فِي سَفَرِي فَقَالَ الْحُقُوقُ كَثِيرَةٌ فَقَالَ لَهُ كَأَنِّي أَعْرِفُكَ أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَقْذَرُكَ النَّاسُ فَقِيرًا فَأَعْطَاكَ اللَّهُ فَقَالَ إِنَّمَا وَرِثْتُ هَذَا الْمَالَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ[1] فَقَالَ إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا

(1) قال تعالى عن هؤلاء: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾.

فَصَيَّرَكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتَ قَالَ وَأَتَى الْأَقْرَعَ فِي صُورَتِهِ فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِهَذَا وَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا رَدَّ عَلَى هَذَا فَقَالَ إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتَ قَالَ وَأَتَى الْأَعْمَى فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ فَقَالَ رَجُلٌ مِسْكِينٌ وَابْنُ سَبِيلٍ انْقَطَعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي فَلاَ بَلاَغَ لِي الْيَوْمَ إِلَّا بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ أَسْأَلُكَ بِالَّذِي رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ شَاةً أَتَبَلَّغُ بِهَا فِي سَفَرِي فَقَالَ قَدْ كُنْتُ أَعْمَى فَرَدَّ اللَّهُ إِلَيَّ بَصَرِي فَخُذْ مَا شِئْتَ وَدَعْ مَا شِئْتَ فَوَاللَّهِ لَا أَجْهَدُكَ الْيَوْمَ شَيْئًا أَخَذْتَهُ لِلَّهِ فَقَالَ أَمْسِكْ مَالَكَ فَإِنَّمَا ابْتُلِيتُمْ فَقَدْ رُضِيَ عَنْكَ وَسُخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ[1]".

بل ربما نسبوا نعم الله تعالى التي أعطاهم إياها إلى أنفسهم وعلمهم وخبرتهم، قال تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: 49].

(1) أخرجه البخاري (3464) ومسلم(2964)واللفظ له.

ثالثاً قصة قارون .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ . وَابْتَغِ فِيمَا آَتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآَخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ . قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ . فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ . وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آَمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ . فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ . وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ . تِلْكَ الدَّارُ الْآَخِرَةُ

نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: 76 – 83].

قال ابن كثير في التفسير (256/6) :

لما ذكر تعالى اختيال قارون في زينته، وفخره على قومه وبغيه عليهم، عقب ذلك بأنه خسف به وبداره الأرض، كما ثبت في الصحيح -عند البخاري من حديث الزهري، عن سالم -أن أباه حدثه: أن رسول الله ﷺ قال:" بينا رجل يجر إزاره إذ خسف به، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة".

ثم رواه من حديث جرير بن زيد، عن سالم عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، نحوه[1].

وقال الإمام أحمد: حدثنا النضر بن إسماعيل أبو المغيرة القاص، حدثنا الأعمش، عن عطية، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ : " بينا رجل فيمَنْ كان قبلكم، خرج في بُرْدَيْن أخضرين يختال فيهما، أمر الله الأرض فأخذته، فإنه ليتجلجل فيها إلى يوم القيامة" . تفرد به أحمد .انتهى

(1) صحيح البخاري برقم (5790).

وروى مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ :قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ " انْظُرُوا إِلَى مَنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ فَهُوَ أَجْدَرُ أَنْ لَا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ [1]".

وقد كان النبي ﷺ يستعيذ من زوال النعمة في دعائه: "اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك، وتحول عافيتك، وفجأة نقمتك، وجميع سخطك "[2].

رابعا قصة أصحاب الجنة

قال تعالى: ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ . وَلَا يَسْتَثْنُونَ . فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ .فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ . فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ . أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ . فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ . أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ . وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ . فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ . بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ . قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ

---

(1) أخرجه مسلم (2963) والترمذي 2513 وابن ماجه (4142) وأحمد(7442)

(2) أخرجه مسلم (2739)، وأبو داود (1550)، والبغوي في شرح السنة 5/168، والحاكم 1/531.

لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ . قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ . فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ . قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ . عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ . كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [القلم: 17 – 33].

هذا مَثَل ضَرَبه الله تعالى لكفار قريش فيما أهدى إليهم من الرحمة العظيمة، وأعطاهم من النعم الجسيمة، وهو بَعْثُهُ محمدًا ﷺ إليهم، فقابلوه بالتكذيب والرد والمحاربة؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ﴾ أي: اختبرناهم، ﴿كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ وهي البستان المشتمل على أنواع الثمار والفواكه ﴿إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ أي: حلفوا فيما بينهم لَيجُذَّنَ ثَمرها ليلاً لئلا يعلم بهم فقير ولا سائل، ليتوفر ثمرها عليهم ولا يتصدقوا منه بشيء، ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ أي: فيما حلفوا به. ولهذا حنثهم الله في أيمانهم، فقال: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ أي: أصابتها آفة سماوية، ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ قال ابن عباس: أي كالليل الأسود. وقال الثوري، والسدي: مثل الزرع إذا حُصِد، أي هشيمًا يبسًا(1).

---

(1) تفسير ابن كثير (8/196).

خامساً قصة صاحب الجنتين :

قال تعالى: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا . كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آَتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا . وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا . وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا . وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا . قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً . لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا . وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا . فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا . أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا . وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا . وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا . هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ [الكهف: 32 – 44].

والمعنى " واذكر أيه الرسول مثلاً وقع فيما سلَف بين رجلَين : كافرٍ ومؤمن ، وقد رزقنا الكافر جنّتين فيهما أعنابٌ وأصناف كثيرة من الشجر المثمر، وأحطناهما بالنخل، وجعلنا بين البستانين زرعا جيدا .

وقد أثمرت كل واحدةٍ من الجنتين ثمراً كثيرا، ولم يَنْقُص منه شيءٌ، وقد فجرّنا بينهما نهرا يسقيهما.

وكان لصاحب الجنتين أموالٌ أخرى مثمرة ، فداخَلَه الغرور والكبرياء بتلك النعم ، فقال لصاحبه المؤمن وهو يجادله : أنا أَكثرُ منك مالاً وأكثر خدماً وحشَما وأنصارا .

ثم زاد فخرا على صاحبه المؤمن ، فدخل إحدى جنتيه وهو مأخوذ بغروره فقال : ما أظنُّ أن تَفنى هذه الجنة أبدا ، وما أظنّ أن يوم القيامة آتٍ كما تقول ، ولو فُرِضَ ورُجِعْتُ إلى ربي البعث كما تزعم، ليكوننّ لي هناك أحسنُ من هذا الحظ عند ربي ، لأنه لم يعطِني هذه الخيراتِ في الدنيا إلا ليعطيني ما هو أفضل منها فيما بعد .

فقال له صاحبه المؤمن واعظاً له وزاجراً عما هو فيه من الكفر : كيف تكفر بربك الذي خَلَقك من ترابٍ ثم من نطفة لا تُرى ، ثم صوّرك رجلاً كاملا . أنا أقول : إن الذي خلَقني وخلَق هذا الكونَ وما فيه هو الله ربي ، وأنا أومن به وأعبُده وحده ولا أُشرِك معه أحدا .

ثم زاد في وعظه قائلا : هلاّ إذ أعجبتْك جنتُك حين دخلتَها ونظرتَ إلى ما فيها من رزق وجمال حمدتَ الله على ما أنعم به عليك وقلت : ﴿ مَا شَآءَ الله لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بالله ﴾ هذا ما شاء الله ، فيكون ذلكَ شكراً كفيلاً بدوام النعمة عليك .

وبعد أن نصح الكافرَ بالإيمان ، وأبان له عظيم قدرة الله وكبيرَ سلطانه ، قال له : إن تَرَنِي أنا أفقرَ منك وأقلُ ولدا ، فإني أرجو من الله أن يرزقني خيراً من جنتك ويرسلَ على جنتك سيولاً عظيمة وصواعقَ تخرّبها فتصيرَ أرضاً ملساء لا ينبت فيها شيء ولا يثبت عليها قوم ، وتصبح أنت وما تملك أثراً بعد عين .

وقد اخبر الله تعالى بانه قد حقّق ما قدّره هذا المؤمن فقال :﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ أحاطت الجوائحُ بثمار جنته

التي كان يقول : ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هذه أَبَداً﴾ وأهلكتها الصواعقُ والآفات ، وأبادت أصولَها ، فأصبح يقلّب كفيه ندماً وتحسرا على خسارته وضياع ماله حين رآها ساقطةً على عروشها خاليةً من الثمر ، وضاعت منه الدنيا وحُرم الدنيا والآخرة معا ، وعظُمت حسرته وقال : ليتَني لم أشرك بربّي أحدا .

﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ الله وَمَا كَانَ مُنْتَصِراً هُنَالِكَ الولاية لِلَّهِ الحق هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً﴾ . ولم تكن له عشيرة تنصره من دون الله ، وما كان منتصراً بقوّته . وهنا تبيَّنَ أن الله ينفرد بالوَلاية والنصرة والعزة ، ومن اعتزّ بغير الله ذلّ ، فلا قوةَ إلا قوّته ، ولا نصر إلا نصرهُ ، وثوابهُ .

ويسدل الستار على مشاهد الجنة الخاوية على عروشها ، وصاحبها يقلّب كفّيه أسفاً وندماً، وجلالُ الله يظلل الموقف ، حيث تتوارى قدرةُ الإنسان [1].

---

(1) تفسير القطان (2/ 373 ، 374).

مواضع مطلوب فيها الشكر.

(1) شكر الله دائما وعلى كل حال :

عن عائشة قالت كان رسول الله ﷺ إذا رأى ما يحب قال: " الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وإذا رأى ما يكره قال الحمد لله على كل حال[1] ".

وعَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :"الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَآنِ أَوْ تَمْلَأُ مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالصَّلَاةُ نُورٌ وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا[2] ".

---

(1) أخرجه ابن ماجه 3803 وحسنه الألباني في الصحيحة 265 وصححه في صحيح الجامع رقم : 4640 .

(2) أخرجه مسلم (223) والترمذي(3517) وأحمد برقم 22953

(2) شكر الناس على إسداء المعروف.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ " لَا يَشْكُرُ اللَّهَ مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ [(1)] ".

وعَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رضي الله عنهما قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ " مَنْ صُنِعَ إِلَيْهِ مَعْرُوفٌ فَقَالَ لِفَاعِلِهِ جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا فَقَدْ أَبْلَغَ فِي الثَّنَاءِ [(2)] ".

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ " مَنْ أُعْطِيَ عَطَاءً فَوَجَدَ فَلْيَجْزِ بِهِ فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فَلْيُثْنِ بِهِ فَمَنْ أَثْنَى بِهِ فَقَدْ شَكَرَهُ وَمَنْ كَتَمَهُ فَقَدْ كَفَرَهُ [(3)] ".

---

(1) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب ،باب في شكر المعروف رقم(4811)والترمذي في كتاب البر والصلة ،باب ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك رقم(1954) وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم : 6601.

(2) أخرجه الترمذي برقم2035 والنسائي في الكبرى رقم 10008وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم : 6368 عن أسامة بن زيد رضي الله عنه. وأخرجه والحميدي في مسنده (1160)عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(3) أخرجه أبو داود(4813) والترمذي (2034)وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (617).

(3) الشكر عند حصول النعمة :

ومنه قول أهل الجنة :﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [سورة فاطر : 34].

وقال سفيان الثوري في قوله عز وجل: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾. قال: نسبغ عليهم النعم ونمنعهم الشكر [1].

وأخرج ابن أبي الدنيا في "كتاب الشكر" (130) حدثني حمزة ابن العباس ثنا عبدان بن عثمان أنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن عبد الرحمن رجل من صنعاء قال أرسل النجاشي ذات يوم إلى جعفر بن أبي طالب وأصحابه فدخلوا عليه وهو في بيت عليه خلقان وهو جالس على التراب قال جعفر وأشفقنا منه حين رأيناه على تلك الحال فلما رأى ما في وجوهنا قال أني أبشركم بما يسرني أنه جاءني من نحو أرضكم عين لي فأخبرني أن الله عز و جل قد

---

(1) سير أعلام النبلاء (7/258) والأسماء والصفات للبيهقي (1024).

نصر نبيه وأهلك عدوه وأسر فلان وفلان وفلان وقتل فلان وفلان التقوا بواد يقال له بدر كثير الأراك كأني أنظر اليه كنت أرعى به لسيدي رجل من بني ضمرة أبله فقال له جعفر مالك جالس على التراب ليس تحتك بساط وعليك هذه الإملاق قال أنا نجد فيما أنزل الله عز و جل على عيسى عليه السلام إن حقا على عباد الله أن يحدثوا لله تواضعا عندما يحدث لهم نعمة فلما أحدث الله لي نصر نبيه ﷺ أحدثت له هذا التواضع.

(4) سجود الشكر:

عَنْ أَبِي بَكْرَةَ رضي الله عنه : أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَتَاهُ أَمْرٌ فَسُرَّ بِهِ فَخَرَّ لِلَّهِ سَاجِدًا[1] ".

وفي الصحيحين في قصة توبة كعب بن مالك رضي الله عنه قال كعب : " فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الْحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنَّا قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي وَضَاقَتْ عَلَيَّ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ سَمِعْتُ صَوْتَ

---

(1) أخرجه الترمذي (1578) وابن ماجه (1394) وابن أبي الدنيا في الشكر (135) وحسنه الألباني.

صَارِخٍ أَوْفَي عَلَى سَلْعٍ[1] يَقُولُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ يَا كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ أَبْشِرْ قَالَ فَخَرَرْتُ سَاجِدًا" .

وأيضاً من شكر الله أن تظهر النعمة على العبد :

روى أحمد والنسائي وابن حبان والطبراني عن أبي الأحوص عن أبيه أنه أتى النبي ﷺ في ثوب دون فقال له النبي ﷺ: ألك مال قال نعم من كل المال قال من أي المال قال قد آتاني الله من الإبل والغنم والخيل والرقيق قال فإذا آتاك الله مالا فلير عليك أثر نعمة الله وكرامته[2].

---

(1) أي أشرف على جبل سلع. وهو جبل بالمدينة.ذكر الواقدي في المغازي [ص 1053] :إن المنادي هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

(2) أخرجه : أحمد والنسائي وابن حبان والطبراني وصححه الألباني في صحيح الجامع(254).

(5) الصبر عند المصيبة من شكر الله تعالى :

قال تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 216].

قال تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ . الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ . أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ البقرة.

وفي الحديث عن أبي موسى أن النبي ﷺ قال : " إذا مات ولد العبد قال الله لملائكته : قبضتم ولد عبدي ؟ فيقولون : نعم، فيقول : قبضتم ثمرة فؤاده ؟ فيقولون : نعم . فيقول : ماذا قال

عبدي ؟ فيقولون : حمدك واسترجع ، فيقول الله : ابنوا لعبدي بيتا في الجنة ، وسموه بيت الحمد [1] " .

وقد قال ﷺ في الحديث: "عجبا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له[2] " .

قصة أم سليم مع زوجها أبي طلحة رضي الله عنهما.

قال أنس رضي الله عنه: " قال مالك أبو أنس لامرأته أم سليم – وهي أم أنس –: إن هذا الرجل – يعني النبي ﷺ يحرم الخمر – فانطلق حتى أتى الشام فهلك هناك فجاء أبو طلحة، فخطب أم سليم، في كلمها في ذلك، فقالت: يا أبا طلحة! ما مثلك يرد، ولكنك امرؤ كافر، وأنا امرأة مسلمة لا يصلح لي أن أتزوجك! فقال: ما ذاك دهرك، قالت: وما دهري قال: الصفراء والبيضاء!

---

(1) أخرجه :أحمد(19725) والترمذي(1021).

(2) أخرجه مسلم (2999)، وابن حبان (2896)، وأحمد (18934) من حديث صهيب.

قالت: فإني لا أريد صفراء ولا بيضاء، أريد منك الإسلام، (فإن تسلم فذاك مهري، ولا أسألك غيره)، قال: فمن لي بذلك؟ قالت: لك بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فانطلق أبو طلحة يريد النبي صلى الله عليه وسلم ورسول الله ﷺ جالس في أصحابه، فلما رآه قال: جاءكم أبو طلحة غرة الإسلام بين عينيه، فأخبر رسول الله ﷺ بما قالت أم سليم، فتزوجها على ذلك، قال ثابت – وهو البناني أحد رواة القصة عن أنس– فما بلغنا أن مهراً كان أعظم منه أنها رضيت الإسلام مهراً، فتزوجها وكانت امرأة مليحة العينين، فيها صغر، فكانت معه حتى ولد له بني، وكان يحبه أبو طلحة حباً شديداً. (فكان أبو طلحة يقوم صلاة الغداة يتوضأ، ويأتي النبي ﷺ فيصلى معه، ويكون معه إلى قريب من نصف النهار، ويجئ يقيل ويأكل، فإذا صلى الظهر تهيأ وذهب، فلم يجئ إلى صلاة العتمة) فانطلق أبو طلحة عشية إلى النبي ﷺ (وفي رواية: إلى المسجد) ومات الصبي فقالت أم سليم: لا ينعين إلى أبي طلحة أحد ابنه حتى أكون أنا الذي أنعاه له، فهيأت الصبي (فسجت عليه)، ووضعته (في جانب البيت)، وجاء أبو طلحة من

عند رسول الله ﷺ حتى دخل عليها (ومعه ناس من أهل المسجد من أصحابه) فقال: كيف ابني؟ فقالت: يا أبا طلحة ما كان منذ اشتكى أسكن منه الساعة (وأرجو أن يكون قد استراح!) فأتته بعشائه (فقربته إليهم فتعشوا، وخرج القوم)، (قال فقام إلى فراشه فوضع رأسه)، ثم قامت فتطيبت، (وتصنعت له أحسن ما كانت تصنع قبل ذلك)، (ثم جاءت حتى دخلت معه الفراش، فما هو إلا أن وجد ريح الطيب كان منه ما يكون من الرجل إلي أهله)، (فلما كان آخر الليل) قالت: يا أبا طلحة أرأيت لو أن قوماً أعاروا قوماً علية لهم، فسألوهم إياها أكان لهم أن يمنعوهم؟ فقال: لا، قالت فإن الله عز وجل كان أعارك ابنك عارية، ثم قبضه إليه، فاحتسب واصبر! فغضب ثم قال: تركتني حتى إذا وقعت بها وقعت به نعيت إلي ابني! (فاسترجع، وحمد الله)، (فلما أصبح اغتسل)، ثم غدا إلى رسول الله ﷺ (فصلى معه) فأخبره، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم، بارك الله لكما في غابر ليلتكما، فثقلت من ذلك الحمل، وكانت أم سليم تسافر مع النبي ﷺ، تخرج إذا خرج، وتدخل معه إذا دخل، وقال رسول الله ﷺ إذا ولدت فأتوني

بالصبي، (قال: فكان رسول الله ﷺ في سفر وهي معه، وكان رسول الله ﷺ إذا أتى المدينة من سفر لا يطرقها طروقاً، فدنوا من المدينة، فضربها المخاض، واحتبس عليها أبو طلحة، وانطلق رسول الله ﷺ، فقال أبو طلحة: يا رب إنك لتعلم أنه يعجبني أن أخرج مع رسولك إذا خرج، وأدخل معه إذا دخل، وقد احتبست بما ترى، قال: تقول أم سليم: يا أبا طلحة ما أجد الذي كنت أد فانطلقا قال: وضربها المخاض حين قدموا)، فولدت غلاما، وقالت لابنها أنس: (يا أنس! لا يطعم شيئا حتى تغدوا به إلى رسول الله ﷺ، (وبعثت معه بتمرات)، قال: فبات يبكي، وبت مجنحا عليه، أكالئه حتى أصبحت، فغدوت إلى رسول الله ﷺ)، (وعليه بردة)، وهو يسم إبلاء أو غنما (قدمت عليه)، فلما نظر إليه، قال لأنس: أولدت بنت ملحان؟ قال: نعم، (فقال: رويدك أفرغ لك)، قال: فألقى ما في يده، فتناول الصبي وقال: (أمعه شيء ؟ قالوا: نعم، تمرات)، فأخذ النبي ﷺ (بعض) التمر (فمضغهن، ثم جمع بزاقه)، (ثم فغر فاه، وأوجره إياه)، فجعل يحنك الصبي، وجعل الصبي يتلمظ: (يمص بعض حلاوة التمر وريق رسول

الله ﷺ، فكان أول من فتح أمعاء ذلك الصبي على ريق رسول الله ﷺ فقال: انظروا إلى حب الأنصار التمر، (قال: قلت: يا رسول الله سمه، قال:) (فمسح وجهه) وسماه عبد الله، (فما كان في الأنصار شاب أفضل منه)، قال: فحرج منه رجل كثير، واستشهد عبد الله بفارس[1] ".

---

(1) قال الألباني :أخرجه الطيالسي (رقم 2056) والسياق له، ومن طريقه البيهقي (4 / 65 - 66 - وابن حبان (725) وأحمد (3 / 105 - 106، 181، 196، 287، 290) والزيادات كلها له كما سيأتي، ورواه البخاري (3 / 132 - 133) ومسلم (6 / 174 - 175) مختصرا مقتصرا على قصة وفاة الصبي، وروى النسائي (2 / 87) قسما من أوله، والزيادة الأولى له، والسادسة والثامنة والخامسة عشر والسادسة عشر للبخاري، والتاسعة عشر والثانية والعشرون لمسلم، وسائرها لأحمد كما سبق.

وقد عنيت عناية خاصة بجمع روايات هذه القصة وألفاظها، لما فيها من روعة وجلالة، وليأخذ القارئ عنها فكرة جامعة صادقة، وذلك تتم العبرة والفائدة.

المصدر: أحكام الجنائز للألباني ص 26.

قصة أم سلمة رضي الله عنها:

أخرج مالك في الموطأ وأحمد ومسلم وابن ماجة عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ :" مَا مِنْ مُسْلِمٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ فَيَقُولُ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ اللَّهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا إِلَّا أَخْلَفَ اللَّهُ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا" .

قَالَتْ فَلَمَّا مَاتَ أَبُو سَلَمَةَ قُلْتُ أَيُّ الْمُسْلِمِينَ خَيْرٌ مِنْ أَبِي سَلَمَةَ أَوَّلُ بَيْتٍ هَاجَرَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ إِنِّي قُلْتُهَا فَأَخْلَفَ اللَّهُ لِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَتْ أَرْسَلَ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَاطِبَ بْنَ أَبِي بَلْتَعَةَ يَخْطُبُنِي لَهُ فَقُلْتُ إِنَّ لِي بِنْتًا وَأَنَا غَيُورٌ فَقَالَ أَمَّا ابْنَتُهَا فَنَدْعُو اللَّهَ أَنْ يُغْنِيَهَا عَنْهَا وَأَدْعُو اللَّهَ أَنْ يَذْهَبَ بِالْغَيْرَةِ .واللفظ لمسلم

وقال شريح رحمه الله :ما أصيب عبد بمصيبة إلا كان لله عليه فيها ثلاث نعم، أن لا تكون كانت في دينه ،وأن لا تكون أعظم مما كانت، وأنها كائنة فقد كانت .

وعن عبد العزيز بن أبي رواد قال : رأيت في محمد بن واسع قرحة قال فكأنه رأى ما شق علي منها فقال أتدري ماذا لله تعالى علي من

هذه القرحة من نعمة؟ فأسكت ، قال :إذ لم يجعلها على حدقتي ولا على طرف لساني ولا على طرف ذكري فهانت علي قرحته[1].

الشكر والحمد على العافية عند رؤية أهل البلاء:

أخرج الترمذي (3431) وابن ماجه (3892)عن سَالِمِ بن عبد اللَّهِ بن عُمَرَ عن ابن عُمَرَ عن عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال :"من رَأَى صَاحِبَ بَلاَءٍ فقال الْحَمْدُ لِلَّهِ الذي عَافَانِي مِمَّا ابْتَلاَكَ بِهِ وَفَضَّلَنِي على كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقَ تَفْضِيلاً إلا عُوفِيَ من ذلك الْبَلاَءِ كَائِنًا ما كان ما عَاشَ [2]". إلا عند ابن ماجه عن ابن عمر عن رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

قال النووي في الأذكار ص 239 : قال العلماء من أصحابنا وغيرهم ينبغي أن يقول هذا الذكر سرا بحيث يسمع نفسه ولا يسمعه المبتلى لئلا يتألم قلبه بذلك إلا أن تكون بليته معصية فلا بأس أن يسمعه ذلك إن لم يخف من ذلك مفسدة والله أعلم.

---

(1) ابن أبي الدنيا في كتاب الشكر152.

(2) وأخرجه الترمذي(3432) عن أبي هريرة.

الشكر عند الطعام وبعده:

عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ : " إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة، فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها" رواه مسلم.

وروى أبو داود عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أكل وشرب قال: "الحمد لله الذي أطعم وسقى وسوغه، وجعل له مخرجًا" .

روى ابن أبي الدنيا في كتاب الشكر(72) عن روح بن قاسم أن رجلاً من أهله تنسك فقال لا آكل الخبيص أو الفالوذج لا أقوم بشكره .

قال فلقيت الحسن فقلت له في ذلك فقال الحسن هذا إنسان أحمق وهل يقوم بشكر الماء البارد.

وروى ابن أبي الدنيا في كتاب الشكر(92) بسنده عن الحسن قال : قال أبو الدرداء من لم يعرف نعمة الله عليه إلا في مطعمه ومشربه فقد قل علمه وحضر عذابه.

وروى ابن أبي الدنيا في كتاب الشكر(159) بسنده عن تميم بن سلمة قال حدثت أن الرجل إذا ذكر اسم الله على طعامه وحمده على آخره لم يسئل عن نعيم ذلك الطعام.

الشكر عند النظر في المرآة:

عن أنس بن مالك قال كان رسول الله ﷺ إذا نظر وجهه في المرآة قال : "الحمد لله الذي سوى خلقه فعدله وكرم صورة وجهي وحسنها وجعلني من المسلمين[1]".

أخرج ابن أبي الدنيا في كتاب الشكر(178) عن بن سيرين قال : كان ابن عمر يكثر النظر في المرآة وتكون معه في الأسفار فقلت ولم قال أنظر فما كان في وجهي زين وهو في غيري شين أحمد الله عليه.

(1) أخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة(164) وابن أبي الدنيا في كتاب الشكر(166).

الشكر عند لبس الجديد:

أَخْرَجَ أَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ وَالتِّرْمِذِيّ وَصَحَّحَهُ مِنْ حَدِيث أَبِي سَعِيد " كَانَ رَسُول اللَّه ﷺ إِذَا اِسْتَجَدَّ ثَوْبًا سَمَّاهُ بِاسْمِهِ عِمَامَة أَوْ قَمِيصًا أَوْ رِدَاء ثُمَّ يَقُول : " اللَّهُمَّ لَك الْحَمْد أَنْتَ كَسَوْتنِيهِ ، أَسْأَلك خَيْره وَخَيْر مَا صُنِعَ لَهُ أَعُوذ بِك مِنْ شَرّه وَشَرّ مَا صُنِعَ لَهُ".

وَأَخْرَجَ التِّرْمِذِيّ وَابْن مَاجَهْ وَصَحَّحَهُ الْحَاكِم مِنْ حَدِيث عُمَر رَفَعَهُ مَنْ لَبِسَ جَدِيدًا فَقَالَ : " الْحَمْد لِلَّهِ الَّذِي كَسَانِي مَا أُوَارِي بِهِ عَوْرَتِي ، وَأَتَجَمَّل بِهِ فِي حَيَاتِي - ثُمَّ عَمَدَ إِلَى الثَّوْب الَّذِي أَخْلَقَ فَتَصَدَّقَ بِهِ - كَانَ فِي حِفْظ اللَّه وَفِي كَنَف اللَّه حَيًّا وَمَيِّتًا ".

وَأَخْرَجَ أَحْمَد وَالتِّرْمِذِيّ وَحَسَّنَهُ مِنْ حَدِيث مُعَاذ بْن أَنَس رَفَعَهُ " مَنْ لَبِسَ ثَوْبًا فَقَالَ : الْحَمْد لِلَّهِ الَّذِي كَسَانِي هَذَا وَرَزَقَنِيهِ مِنْ غَيْر حَوْل مِنِّي وَلَا قُوَّة ، غَفَرَ اللَّه لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبه ".

الشكر دبر كل صلاة :

أخرج أحمد و أبو داود: أن النبي ﷺ قال لمعاذ: "والله إني لأحبك، فلا تنس أن تقول دبر كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك [1]".

أسباب التقصير في شكر الله تعالى:

الأمور التي تمنع المسلم من الشكر وتصرفه عن هذه العبادة كثيرة ، ومنها:

(1) عدم استشعار قيمة النعمة ، وما ذاك إلاّ أنه لم يذق طعم حرمانها ، أو لجهله بحقيقة الشكر .

(2) الغرور بدوام النعمة، وكثرة التقلب فيها، فيغفل عن زوالها أو مفارقته إياها.

(3) طلب المثالية في النعم ، فإما أن يطلب المستحيل أو ما ليس له وجود على أرض الواقع فيشغل نفسه عن شكرها .

---

(1) أخرجه أحمد (22119)، وأبو داود (1522)، وابن خزيمة (751)، وابن حبان (2020)، والحاكم (1/273) عن معاذ رضي الله عنه.

(4) عدم القناعة بما هو فيه من نعمة ، فتجده ينظر إلى من هو أحسن منه حالاً وأوفر نعمة ، فيزدري نعمة الله عليه فلا يرى لها حق شكر عليه .

(5) الأمن من مكر الله ، فترى كثيراً من ضعاف الإيمان ينظر إلى الكفرة والطغاة وهم يرفلون بوافر من النعم مع ما هم عليه من الكفر والطغيان ، فيأمن على نفسه ، لأنه يرى أنه أحسن منهم حالاً.

(6) عدم أخذ العظة والعبرة ممن حُرم بعض النعم ، إما وُلد فاقداً لها ، أو قدر الله عليه بحادث أفقده بعض ما كان ينعم به .

(7) الكِبر والبطر ، فتجد بعض من اغتنى بعد فقر يرى أنه اغتنى على استحقاق منه، كما قال تعالى على لسان قارون : ﴿ قال إنما أوتيته على علم عندي ﴾ .

(8) الاستهزاء بأصحاب البلاء وعدم ذكر الدعاء الوارد عند رؤية المبتلى[1] .

---

(1) كتاب: فحتى لا نفقدها ،لمتعب بن سريان العصيمي ص21.

(9) الغفلة وهو من أعظم الأسباب ، قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام:44].

أمور معينة على الشكر[1]:

الأمور المعينة على الشكر كثيرة ، ولكن نجملها في هذه الأسباب على سبيل المثال لا الحصر لها:

(1) إمعان النظر في كثرة النعم التي نرفل فيها ليلاً ونهاراً ، وسراً وجهاراً ، وأننا مطالبون بشكر الله عليها سواءً كانت حسية أو معنوية .

(2) النظر في أمور الدنيا إلى من هو دونك ، وإلى أمور الآخرة في من فوقك ،كما أرشدنا إلى ذلك النبي ﷺ في قوله: " انظروا إلى من هو أسفل منكم ، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم ، فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم[2] " .

---

(1) السابق ص 6 ، 7.

(2) متفق عليه ، وهذا لفظ مسلم (2963) .

(3) مقارنة ما نحن اليوم فيه من النعم وبين ما كان عليه سلفنا وأجدادنا في الماضي .

(4) التحدث بالنعم ، قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾[1] .

قال الحسن البصري : أكثروا من ذكر هذه النعم ، فإن ذكرها شكر" .

(5) الاقتصاد في النعمة وصرفها في الخير .

(6) النظر في سير الصالحين ، وكيف كانوا يشكرون الله على نعمه.

(7) زيارة دور الإعاقة والمصحات النفسية وغيرها ، والنظر في حال أولئك.

المرضى لنستشعر قيمة ما نحن فيه من نعم كثيرة قلّ لها شكرنا .

(8) محبة النعمة واحترامها طريق إلى الشكر .

(9) تذكر الماضي من جاهلية وضلال وفقر ، وكيف توالت عليك نعم الله ، قال تعالى مذكراً نبيه صلى الله عليه وسلم بعض نعمه عليه : ﴿ ألم يجدك يتيماً فأوى ، ووجدك ضالاً فهدى ، ووجدك عائلاً فأغنى ﴾ [سورة الضحى :6-7-8] .

---

(1) سورة الضحى : 11 .

(10) التفكر في حقيقة الشكر.

اجتماع الصبر والشكر:

يقول ابن القيم[1] :

والإيمان نصفان: نصف صبر ونصف شكر قال غير واحد من السلف الصبر نصف الإيمان وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: "الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر" ولهذا جمع الله سبحانه بين الصبر والشكر في قوله ﴿إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾ في سورة إبراهيم وفي سورة حم عسق وفي سورة سبأ وفي سورة لقمان وقد ذكر لهذا التنصيف اعتبارات

أحدها أن الإيمان اسم لمجموع القول والعمل والنية وهى ترجع إلى شطرين فعل وترك فالفعل هو العمل بطاعة الله وهو حقيقة الشكر والترك هو الصبر عن المعصية والدين كله في هذين الشيئين فعل المأمور وترك المحظور.

الاعتبار الثاني أن الإيمان مبنى على ركنين يقين وصبر وهما الركنان

---

(1) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص 108 -111 .

المذكوران في قوله تعالى ﴿وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾ فباليقين يعلم حقيقة الأمر والنهى والثواب والعقاب وبالصبر ينفذ ما أمر به ويكف نفسه عما نهى عنه ولا يحصل له التصديق بالأمر والنهى انه من عند الله وبالثواب والعقاب إلا باليقين ولا يمكنه الدوام على فعل المأمور وكف النفس عن المحظور إلا بالصبر فصار الصبر نصف الإيمان والنصف الثاني الشكر بفعل ما أمر به وبترك ما نهى عنه.

الاعتبار الثالث أن الإيمان قول وعمل والقول قول القلب واللسان والعمل عمل القلب والجوارح وبيان ذلك أن من عرف الله بقلبه ولم يقر بلسانه لم يكن مؤمنا كما قال عن قوم فرعون ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم﴾ وكما قال عن قوم عاد وقوم صالح ﴿وعادا وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين﴾ وقال موسى لفرعون: ﴿لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر﴾ فهؤلاء حصل قول القلب وهو المعرفة والعلم ولم يكونوا بذلك مؤمنين وكذلك من قال بلسانه ما ليس في قلبه لم يكن بذلك مؤمنا

بل كان من المنافقين وكذلك من عرف بقلبه وأقر بلسانه لم يكن بمجرد ذلك مؤمنا حتى يأتي بعمل القلب من الحب والبغض والموالاة والمعاداة فيحب الله ورسوله ويوالى أولياء الله ويعادى أعداءه ويستسلم بقلبه لله وحده وينقاد لمتابعة رسوله وطاعته والتزام شريعته ظاهرا وباطنا واذا فعل ذلك لم يكف في كمال إيمانه حتى يفعل ما أمر به فهذه الأركان الأربعة هي أركان الإيمان التي قام عليها بناؤه وهى ترجع إلى علم وعمل ويدخل في العمل كف النفس الذى هو متعلق النهى وكلاهما لا يحصل الا بالصبر فصار الإيمان نصفين أحدهما الصبر والثاني متولد عنه من العلم والعمل.

الاعتبار الرابع أن النفس لها قوتان قوة الإقدام وقوة الإحجام وهى دائما تتردد بين أحكام هاتين القوتين فتقدم على ما تحبه وتحجم عما تكرهه والدين كله إقدام وإحجام إقدام على طاعة وإحجام عن معاصي الله وكل منهما لا يمكن حصوله إلا بالصبر.

الاعتبار الخامس أن الدين كله رغبة ورهبة فالمؤمن هو الراغب الراهب قال تعالى :﴿إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا ﴾ وفي الدعاء عند النوم الذي رواه البخاري في

صحيحه " اللهم انى أسلمت نفسي إليك ووجهت وجهي إليك وفوضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك رغبة ورهبة اليك" فلا تجد المؤمن أبدا إلا راغبا وراهبا والرغبة والرهبة لا تقوم إلا على ساق الصبر فرهبته تحمله على الصبر ورغبته تقوده إلى الشكر

الاعتبار السادس إن جميع ما يباشره العبد في هذه الدار لا يخرج عما ينفعه في الدنيا والآخرة أو يضره في الدنيا والآخرة أو ينفعه في أحد الدارين ويضره في الأخرى وأشرف الأقسام أن يفعل ما ينفعه في الآخرة ويترك ما يضره فيها وهو حقيقة الإيمان ففعل ما ينفعه هو الشكر وترك ما يضره هو الصبر.

الاعتبار السابع أن العبد لا ينفك عن أمر يفعله ونهى يتركه وقدر يجرى عليه وفرضه في الثلاثة الصبر والشكر ففعل المأمور هو الشكر وترك المحظور والصبر على المقدور هو الصبر

الاعتبار الثامن إن العبد فيه داعيان داع يدعوه إلى الدنيا وشهواتها ولذاتها وداع يدعوه إلى الله والدار الآخرة وما أعد فيها لأوليائه من النعيم المقيم فعصيان داعي الشهوة والهوى هو الصبر وإجابة داعي الله والدار الآخرة هو الشكر.

الاعتبار التاسع أن الدين مداره على أصلين العزم والثبات وهما الأصلان المذكوران في الحديث الذي رواه أحمد والنسائي عن النبي: "اللهم إني أسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد" وأصل الشكر صحة العزيمة وأصل الصبر قوة الثبات فمتى أيد العبد بعزيمة وثبات فقد أيد بالمعونة والتوفيق.

الاعتبار العاشر إن الدين مبنى على أصلين الحق والصبر وهما المذكوران في قوله تعالى: ﴿وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾ ولما كان المطلوب من العبد هو العمل بالحق في نفسه وتنفيذه في الناس وكان هذا هو حقيقة الشكر لم يمكنه ذلك إلا بالصبر عليه فكان الصبر نصف الإيمان والله سبحانه وتعالى أعلم.

*****

تقول الدكتورة كاملة الأنوار حجاب في كتاب: الشكر في القرآن (ص 408 –410) ما يلي:

اجتماع الصبر والشكر على وجه واحد

فيما تقدم رأينا اجتماع الصبر والشكر. لكن على التبادل ينعم على العبد تارة فيشكر على النعمة. ويبتلى تارة أخرى فيصبر على البلية.

لكن ذكر ابن قدامة . أن الشىء الواحد قد يكون نعمة من جهة ونقمة من جهة أخرى وأن لله تعالى فى كل موجود نعمة.

يقول ابن قدامة: «إن لله تعالى فى كل موجود نعمة. وهذا يشير إلى أن البلاء لا وجود له أصلا. فما معنى الصبر؟

وإن كان البلاء موجودًا. فما معنى الشكر على البلاء؟

وكيف يجتمع الصبر والشكر؟

فإن الصبر يستدعى ألمًا. والشكر يستدعى فرحًا. وهما متضادان.

ثم يقول: «اعلم أن البلاء موجود. كما أن النعمة موجودة. وأنه ليس كل بلاء يؤمر بالصبر عليه. فالكفر بلاء. ولا معنى للصبر عليه. وكذا المعاصى بلاء ولا يؤمر بالصبر عليها.

غير أن الكافر لا يعلم أن كفره بلاء. فيكون كمن به علة وهو لا يتألم بها بسبب غشيته.

فإذن يرجع الصبر فى الدنيا إلى ما ليس ببلاء مطلق. بل يجوز أن يكون نعمة من وجه. فلذلك يتصور أن تجتمع عليه وظيفة الشكر ووظيفة الصبر.

فإن الغنى مثلا يجوز أن يصير سبب هلاك الإنسان. حتى يقصد قتله بسبب ماله.

وأن الله سبحانه وتعالى جعل فى كل موجود نعمة. حتى أن الآلام قد تكون نعمة فى حق المتألم وقد تكون نعمة فى حق غيره. كألم الكفار فى النار فى الآخرة. فإنه نعمة فى حق أهل الجنة. إذا ذكروا ألم أهل النار.

فإذن صح قولنا: إن الله تعالى لم يخلق شيئًا إلا وفيه حكمة ونعمة إما على جميع العباد أو على بعضهم.

ففى خلق الله تعالى البلاء نعمة أيضًا إما على المبتلى أو على غيره. فتجتمع على العبد وظيفة الشكر ووظيفة الصبر فى كل حالة لا توصف بأنها بلاء مطلق ولا نعمة مطلقة.

فإن الإنسان قد يفرح بالشىء الواحد من وجه ويغتم به من وجه. فيكون الصبر من حيث الاغتمام والشكر من حيث الفرح.

ويزيد ابن قدامة المقام تفصيلا.

فيقول: اعلم أن فى كل فقر ومرض وخوف وبلاء فى الدنيا خمسة أشياء ينبغى أن يفرح العاقل بها ويشكر عليها.

أحدها: أن كل مصيبة ومرض يتصور أن يكون عليه أكثر منها. لأن مقدورات الله لا تتناهى. فلو أضعفها الله عز وجل على العبد فما كان يمنعه. فليشكر إذ لم تكن المصيبة أعظم.

الثاني: أن المصيبة لم تكن فى الدين.

قال عمر بن الخطاب: ما ابتليت ببلاء ألا كان لله تعالى على فيه أربع نعم إذ لم يكن فى دينى. وإذ لم يكن أعظم. وإذ لم أحرم الرضى به. وإذ أرجو عليه الثواب.

وقال رجل لسهل بن عبد الله: دخل اللص بيتى وأخذ متاعى. فقال: اشكر الله تعالى لو دخل الشيطان قلبك فأفسد إيمانك ماذا كنت تصنع؟

ومن استحق أن يضربك مائة سوط. فاقتصر على عشرة فهو مستحق للشكر.

الثالث: إنه ما من عقوبة ألا ويتصور أن تؤخر للآخرة. ومصائب الدنيا يتسلى عنها فتخف. ومصيبة الآخرة دائمة.

وفى صحيح مسلم. أن كل ما يصاب به المسلم يكون كفارة له حتى الشوكة يشاكها.

الرابع: أن هذه المصيبة كانت مكتوبة فى أم الكتاب عليه. ولم يكن بد من وصولها إليه. فقد وصلت واستراح منها. فهى نعمة.

الخامس: أن ثوابها أكثر منها. فإن مصائب الدنيا طرق إلى ثواب الآخرة.

فما من شىء من هذه الأشياء يوجد إلا ويتصور أن يكون للعبد فى ذلك خيرة دينية فعليه أن يحسن الظن بالله. ويقدر الخير فيما يصيبه ويشكر الله تعالى عليه.

وفى الحديث: «لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرًا له»[1].

---

(١) مختصر منهاج القاصدين. لابن قدامة المقدسى ص٣٠٤. بتصرف.

الفهرس

صدر للمؤلف

كتاب

حديث الآحاد عند الأصوليين

والرد على شبهات المنكرين

تقديم

فضيلة الشيخ/ وحيد بالي

فضيلة الشيخ/ محمد فرج الهنداوي

صدر أيضا بحمد الله

تفنيد الشبهات حول ميراث المرأة في الإسلام

قدم له

فضيلة الشيخ: وحيد بالي

حفظه الله

تأليف

أبي عاصم البركاتي المصري